اطوار اللغة العربية (*)

لم يأت الباحثون عن مبدأ اللغة في ادلتهم بما تطمئن اليه النفوس ويحل منها محل القطع او الظن القريب منه، على ان اختلافهم في تعيين الواضع هل هو الله تعالى او البشر ما لا تترتب عليه فائدة في العمل تقتضي العناية بترجيح احد المذهبين ومن ثم صحح المحققون ان ادخال هذه المسألة في علم الاصول من الفضول، وزعم بعضهم ان قلب الالفاظ التي يؤدي تغييرها الى فساد في احكام الشريعة كتسمية الثوب فرسا والفرس ثوبا يرجع حكمه الى اصل ذلك الخلاف فيمتنع القلب على القول بان اللغة كلها وقعت بتعليم من الله ويجوز على القول بانها وضعت باصطلاح البشر وليس هذا البناء بمستقيم فان مجرد اسناد الوضع الى الله تعالى وان ثبت بالحجة القاطعة لا يقتضي الوقوف عند حد ما ورد منه والامساك عن تغييره باصطلاح جديد

وأقصى ما ثبت في التاريخ ان هذه اللغة كانت في قبائل من ولد سام بن نوح عليه السلام وهم عاد وثمود وجرهم الاولى ووبار وغيرها وقد انقرضت اجيال هؤلاء الا بقايا متفرقين في القبائل ولا يصح شيء مما يروى عنهم من الشعر، وقد انكر العارفون على من كتب في السيرة أشعارا كثيرة ونسبها الى عاد وثمود. ثم انتقلت الى بني قحطان وكانوا يتكلمون باللسان الكلداني لسان اهل العراق الاصليين واول من انتقل لسانه الى العربية يعرب بن قحطان وبعد ان نشأت منها الحميرية لغة اهل اليمن انتقلت الى اولاد اسماعيل عليه السلام بالحجاز، ولم تكن لغة اسماعيل عربية بل كان عبرانيا على لسان ابيه ابراهيم عليه السلام، ثم اختلطت في شعوب العرب بمجاورتهم ومصاهرته لجرهم الثانية حين نزل بمكة فنطق بلسانهم وورثه عنه اولاده فاخذوا يصوغون الكلام بعضه من بعض ويضعون الاسماء بحسب ما يحدث من

(*) بقلم الشيخ محمد الخضر بن الحسين من العلماء المدرسين بجامع الزيتونة بتونس في مساهرته « حياة اللغة العربية »

المعاني الى ان ظهرت اللغة في كامل حسنها وبيانها وصار لها شأن عظيم وتأثير بليغ

ويدلك على عنايتهم بامر الفصاحة ما وصل الينا من نتائج افكارهم وبدائع خطبهم وقصائدهم في سوق عكاظ وسوق مجنة اذ يفدون عليها في موسم الحج ويقيمون في عكاظ ثلاثين يوما وفي مجنة سبعة ايام يتناشدون ماوضعوه من الشعر ويتفاخرون بجودة صناعة الكلام وعند احتفالهم يضربون قبة للشاعر العظيم في وقته كالنابغة الذبياني ويعرضون عليه منتخبات اشعارهم ، وكان بعضهم يهدد بعضا بنظم الهجاء وتسيره في ذينك الموضعين قال امية بن خلف يهدد حسان رضي الله عنه

ألا من مبلغ حسان عني مغلغلة تذب الى عكاظ

وقال حسان في جوابه

اتاني عن اميـة زور قول وما هو في المغيب بذي حفاظ
سأنشر ان بقيت له كلاما يشهر في المجنة مع عكاظ

ومن شواهد هذا ان الحارث بن حلزه اليشكري كان شاعرا حكيما ولكنه ابتلي بوضح (برص) ومن اجله كان عمرو بن هند ملك الحيرة يكره النظر اليه ويأبى ان يستمع إلى خطابه الا من وراء ستار فدخل عليه يوما وانشد بين يديه قصيدته المعدودة في المعلقات

آذنتنا ببينها اسماء رب ثاو يمل منه الثواء

وتعرض فيها الى شيء من الصلح بين بكر وتغلب فبهرت عمرا براعة نظمها واستولت على لبه بسحر بيانها فأخذته هزة وارتياح ولم يتمالك ان امر برفع الستار ما بينهما

واقتضت عناية العرب لذلك العهد بالابداع في القول والتنافس في مقام الفصاحة أن ظهرت معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم في بلاغة ما انزل عليه من القرآن ، كما جاء عيسى عليه السلام يبرئ الاكمه والابرص ويحيي الموتى باذن الله لما ارسل الى قوم توفرت عندهم العناية بعلم الطب ، وكما بعث موسى عليه السلام الى امة انتهى السحر فيها الى غاية فاتاهم في مقام المعجزة بابدع ما يكون في قلب الاعيان وابرازها في غير صورتها الاولى

ثم ارتقت اللغة في صدر الاسلام الى طورها الاعلى ودخلت في اهم دور يحق علينا ان نسميه عصر شبابها فنمت عروقها واثمرت غصونها بالوان مختلفة من الاساليب

ومن مآثر هذه الحياة الراقية ان كان كلام الناشئين في الاسلام من العرب احلى نسقا واصفى ديباجة من كلام الجاهلية في شعرهم وخطبهم ومحاوراتهم

والاسباب التي ارتقت بها اللغة حتى بلغت اشدها واخذت زخرفها امور ثلاثة : أحدها ما جاء به القرآن الحكيم من صورة النظم البديع والتصرف في لسان العرب على وجه يملك العقول فانه جرى في أسلوبه على منهاج يخالف الاساليب المعتادة للفصحاء قاطبة وان لم يخرج عما تقتضيه قوانين اللغة واتفق كبراؤهم على اصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه اللائق به وان تفاضل الناس في الاحساس بلطف بيانه تفاضلهم بسلامة الذوق وجودة القريحة

ومن النحاة من يحكم على بعض استعمالات يرد عليها القرآن بعدم القياس عليها كما قصروا حذف حرف المصدر ورفع المضارع بعده على السماع بعد ان أوردوا في مثاله قوله تعالى «ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا» الآية . ولا أدري كيف يتفق لهم هذا مع علمهم بأنه صاحب البلاغة التي ليس وراءها مطلع ، وإنا لنعلم قولهم في أصول العربية أن ماقل في السماع ان كان مقبولا في القياس صح القياس عليه وان وجد ما يعارضه في القياس يوقف على السماع فنسلم لهم اجراء هذه القاعدة في كلام العرب لاحتمال ان تزيغ السنتهم عن القصد فيحرفون الكلمة عن اصل استعمالها غلطا ولا نسلم لهم تحكيمها في كتاب الله الذي أخرس بفصاحته لسان كل منطيق

ثانيها ما تفجر في اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من ينابيع الفصاحة وما جاء في حديثه من الرقة والمتانة والابانة عن الغرض بدون تكلف: روي ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه قال لقد طفت في احياء العرب فما رأيت احدا أفصح منك يارسول الله؟ قال «ومايمنعني وانا قرشي وارضعت في بني سعد و بنو سعد أفصح قبيلة في العرب بعد قريش »

وانما اغفى علماء اللسان النظر عن الاستشهاد بالحديث لان رواته لم يجمعوا عنايتهم على ضبط الفاظه كما كانوا يثبتون في نقله على المعنى ولو تحقق أهل العربية

من رواية حديث بلفظه كالاحاديث المنقولة للاستشهاد على فصاحته صلى الله عليه وسلم لاسفندوا اليه في وضع احكامها يقينا

ثالثها ماافاضه الاسلام على عقولهم بواسطة القرآن والحديث من العلوم السامية وبما نتج عن تعارف الشعوب والقبائل والتئام بعضها ببعض من الافكار ومطارحة الآراء ومعلوم ان اتساع العقول وامتلاءها بالمعارف مما يرقي مداركها ويزيد في تهذيب المعيشة فتقذف بالمعاني المبتكرة وتبرزها في اساليب مستحدثة فان كثرة المعاني ودقتها تبعث على التفنن في العبارة والتأنق في سياقها ويوضح لكم هذا ان الناشئين في الحواضر نجدهم في الغالب اوسع غاية في اجتلاب المعاني الفائقة واهدى الى العبارات الحسنة ممن يعادلهم في جودة القريحة وفصاحة المنطق بفطرته لاشتمال المدن على معان شتى ينتزع الذهن منها هيئات غريبة لاطريق لتصورها الا المشاهدة

ولما فارقت العرب الحجاز لابلاغ دعوة الاسلام وبث تعاليمه بين الامم اقتضت مخالطتهم لمن يحسن لغتهم ضعف ملكاتها على السنتهم ودخول التغيير عليها في مبانيها واساليبها وحركات اعرابها وابتدأ التحريف يسري الى اللغة في عهد الخليفة الرابع علي بن ابي طالب رضي الله عنه فاشار على أبي الاسود الدؤلي بوضع علم النحو ولم يزل ائمة العربية يحوطونها باستنباط القواعد حتى ضربوا عليها بسياج يقيها عادية الفساد ويحول بينها وبين غوائل الضياع والاضمحلال وحين انتشرت المخالطة وتفشى داء اللحن امسك العلماء عن الاستشهاد بكلام معاصريهم من العرب ويعدون اول المحدثين الذين لايستشهد باقوالهم بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧ واحتج سيبويه بشيء من شعر بشار بدون اعتماد عليه وانما اراد مصانعته وكف اذايته حيث هجاه لتركه الاحتجاج بشعره كما استشهد ابو علي الفارسي في كتاب الايضاح بقول ابي تمام

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الاماني لم يزل مهزولا

وليس من عادتهم الاستشهاد بشعر أبي تمام لان عضد الدولة كان يعجب بهذا البيت وينشده كثيرا

واستشهد صاحب الكشاف عند قوله تعالى (واذا اظلم عليهم قاموا) ببيت من شعر ابي تمام وقال وهو وان كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من

علماء العربية فاجعل مايقوله بمنزلة ما يرويه . فيؤخذ من صريحه انه يرى صحة الاحتجاج بكلام المحدث اذا كان من ائمة اللغة وليس مذهبه هذا بسديد وقياس ما يقوله ابو تمام على مايرويه غير صحيح فان التكلم بالعربية الصحيحة لعهد ابي تمام ناشيء عن ملكة تستفاد من تعلم صناعتها ومدارسة قوانينها فعلى فرض ان لا تفوته معرفة بعضها قد يذهل عن ملاحظة تلك القوانين فلا يأمن ان يزل به لسانه في خطأ مبين . وابو تمام نفسه صدرت عنه ابيات كثيرة خرج فيها عن مقاييس العربية قال ابن الاثير لم اجد احداً من الشعراء المفلقين سلم من الغلط فاما ان يكون لحن لحنا يدل على جهله بواقع الاعراب واما ان يكون اخطأ في تصريف الكلمة ولا اعني بالشعراء من تقدم زمانه كالمتنبي ومن كان قبله كالبحتري ومن تقدمه كأبي تمام ومن سبقه كأبي نواس

اما العربي القح فإنه يطلق العبارة بدون كلفة في اختيار الفاظها او ترتيب وضعها فتقع صحيحة في مبانيها مستقيمة في اعرابها ولا يكاد يلحن في اعراب كلمة او يزيلها عن موضعها اذا ترك لسانه وسجيته ومن ثم كان قوض الشعر كالخطابة على الارتجال والبديهة شائعا عند العرب نادرا في عصر المولدين ، ولا يعترض هذا بان كثيرا من العرب يطيل المدة في عمل القصيدة كما فعل زهير في حولياته لأنه يستوفيها في امد قريب ويتمها على شرط الصحة ولكنه لا يخرجها للناس اذا فرغ من عملها الا بعد التروي واعادة النظر في تقويم معانيها وحسن النسق في بنائها وإحكام قوافيها لا ليخلصها من اللحن ويطبق عليها اصول العربية كما هو شأن المحدثين

ثم نشأ بهذا التحريف الذي طرأ على اللغة مرض آخر انجر اليها بسبب من اسباب حسنها هو ان مسلم بن الوليد وابا تمام امعنا النظر في اشعار الفصحاء وخطبهم وحسروا اللثام عن وجه بيانها فابصروا فيها محاسن من فنون البديع كالاستعارة والجناس والتورية فشغفوا بها وثابروا على ايرادها في منظوماتهم توفيرا لحسنها واستزادة من التأنق فيها فكان الناس يقولون ان اول من افسد الشعر مسلم بن الوليد وسمع اعرابي قصيدة ابي تمام التي يقول في طالعها :

« طال الجميع اراك غير حميد »

فقال ان في هذه القصيدة اشياء افهمها واشياء لا افهمها فاما ان يكون قائلها اشعر من جميع الناس واما ان يكون جميع الناس اشعر منه . وما تعامى فهمها على الاعرابي الا لكونه سمع شعرا حشي بوجوه من البديع خرجت به عن الاسلوب المألوف فثقل تأليفه وبعد عن الافهام تناوله

واتبع طريقهما كثير من الادباء وربما انتهى بهم الاعجاب بعض من البديع الى مخالفة قانون العربية وتغيير بنية الكلمة من اجلها كقول بعضهم

انظر الي بعين مولى لم يزل يولي الندى وتلاف قبل تلافي

فكأنه زاد في مصدر تلف الفا ليتم له الجناس مع قوله تلاف ولا نعرف في كتب اللغة من ذكر التلاف مصدرا لتلف وانما يوردون في مصدره التلف بدون الف

ولم تقف سيئة الاكثار من البديع عند حد الشعر بل تعدى وباؤها الى النثر ايضا فطفق كثير من الكتاب يملأون رسائلهم بوجوه التحسين: الاستعارة والجناس ونحوها، واجتهدوا ان لا يفوتهم الشعراء بواحد منها حتى اذا ما تلقيت صحيفة من هذا القبيل والقيت فيها نظرك ليطوف عليها بالمطالعة ادركته عند كل فقرة جلسة والتوت امامه طرق فهمها وان كانت معاني مفرداتها جلية فتحس به كيف ينتقل من كلمة الى اخرى بخطوات ضيقة كأنما حمل على قيد من حديد، وأكثر هؤلاء يهملون النظر الى جانب المعنى والمحافظة عن اقامته واستيفائه وهذا ما بعث الشيخ عبد القاهر الجرجاني حين قام ينادي بابسط عبارة ان الالفاظ خدم للمعاني وان المعاني مالكة سياسة الالفاظ ، وأقام الحجة في كتابيه دلائل الاعجاز واسرار البلاغة(*) على ان مزية الفصاحة انما استحقتها الالفاظ ووصفت بها من جهة معانيها وازال كل شبهة عرضت لمن اعتقد انها مزية استحقها اللفظ بنفسه

وادرك غالب المحررين اليوم ان تتبع هذه المحسنات ومواصلة العمل بها في نظم الكلام يبدلها سيئات تشمئز منها قلوب الذين يستمعون القول فيقبعون

*) يباع كل واحد منهما بعشرين قرشا صحيحا بادارة المنار واجرة البريد ثلاثة

احسنه بيانا فاقلعوا عن الاكثار منها لاسيما في خطابات الجمهور وزهدوا فيها الا ما سمح به الخاطر عفوا ورمته الطبيعة بدون كلفة ظاهرة

وكانت اللغة في خلال الاعصر الماضية تعلو وتضعف وتنتشر في انحاء المعمورة على حسب كرم الدولة وعناية رجالها بالفنون الادبية فارتفع ذكرها حين كان الامير سيف الدولة يباحث ابا علي الفارسي في غوامض علم النحو وينقد شعر ابي الطيب المتنبي بذوق لطيف وبجازيه وغيره من الشعراء بغير حساب

وارتقى شأنها يوم قام القاضي منذر بن سعيد في مجلس الملك الناصر لدين الله عند احتفاله برسول ملك الروم في قصر قرطبة وشرع يخطب من حيث وقف ابو علي البغدادي وانقطع به القول فوصل منذر افتتاح ابي علي بكلام عجيب واطال النفس في خطبة مرتجلة فخرج الناس يتحدثون ببديهته المعجزة وارتواء لسانه من اللغة الفصحى ولا مرية في ان كرم الدولة باعث على ارتقاء حال اللغة عند من التفت الى التأريخ واقام الوزن بين الشعراء الناشئين في زمن اجواد العرب وملوك آل جفنة وملوك لخم كزهير والنابغة وبين من تقدمهم من الشعراء

باب الانتقاد على المنار

﴿ السائل والمسئول — كلمة مولى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة الشيخ المكرم ناصر السنة وقامع البدعة العالم العامل السيد محمد رشيد رضا المحترم ادام الله بقاءه آمين

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد قرأت في المنار الأغر لازالت راياته منشورة ، وآياته ظاهرة منصورة ، في (ص٨١٤ جزء ١١ من المجلد ١٢) سؤالا ورد